

الدرس الثاني والعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، اللهم علّمنا ما ينفعنا وزدنا علماً .

قال المؤلف رحمه الله وغفر له :

ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : ((من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً)) .

ثم أورد المصنف رحمه الله تعالى هذا الحديث في «باب تحريضه صلى الله عليه وسلم على لزوم السنة والترغيب في ذلك وترك البدع والتفرق والاختلاف والتحذير من ذلك» بعد أن ساق رحمه الله تعالى جملةً من الأحاديث المشتملة على الحث على التمسك بالسنة والتقيد بها .

وهذا الحديث حديث أبي هريرة يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال فيه : ((من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه))؛ المراد بالهدى: أي الذي ترك النبي صلى الله عليه وسلم أمته عليه ، هذا هو الهدى، ما صح عنه وثبت عنه عليه الصلاة والسلام هذا هو الهدى ، وكل عمل يُتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى مما لم يأت به فيه سنة عنه صلوات الله وسلامه عليه فهو من الضلالة ليس من الهدى ، الهدى هو ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام ، قال الله تعالى ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤] ؛ فلا يكون إصابة الهدى إلا باتباعه والسير على منهاجه ، قد مر معنا قريباً قوله عليه الصلاة والسلام ((أما بعد فإن أصدق الحديث كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم)) ، فالدعوة إلى الهدى المراد بها : الدعوة إلى السنة ، إلى ما كان عليه صلوات الله وسلامه عليه وما كان عليه صحابته الكرام رضي الله عنهم .

قال: ((من دعا إلى هدى)) أي من دعا إلى حقٍ وخير مما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام ((كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً)) أي أن الداعي إلى الحق والهدى وإلى سنة النبي عليه الصلاة والسلام كان له من الأجر مثل أجور من تبعه .

ولا يراد بقوله «من تبعه» أي من سمعوا منه هذه الدعوة ، بل يشملهم ويشمل أيضا أتباع الأتباع وأتباعهم إلى ما شاء الله ، فلو دعا إنسان إلى سنة ثم من دعاهم إليها دعوا آخرين والآخرين أيضا دعوا آخرين إلى ما شاء الله؛ كل هؤلاء يُكتب أجورهم لمن دعاهم إلى هذه السنة أولا . ولهذا فإن نبينا عليه الصلاة والسلام له مثل أجور أمته إلى قيام الساعة ، كل من اتبعه عليه الصلاة والسلام فللنبي صلى الله عليه وسلم مثل أجره ؛ له مثل أجر الحجاج في حجهم ، والمُعتمرين في عمرتهم ، والصائمين في صيامهم ، والمتصدقين في صدقتهم ، والبارين بوالديهم في برهم ، والواصلين للأرحام في صلتهم ، إلى غير ذلك من الطاعات ، كل طاعة يقوم بها المسلم في أي وقت وزمان اتباعا للنبي الكريم عليه الصلاة والسلام فله عليه الصلاة والسلام مثل أجره؛ لأنه رَغِبَ في ذلك ودعا إليه ودل الأمة إليه وأرشدهم إليه . ومن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيء .

أيضا الصحابة الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم دعاة حق وهدى ، الآن لما نقول: "قال أبو هريرة رضي الله عنه ، قال عمر رضي الله عنه ، قال أبو بكر رضي الله عنه ، قال علي رضي الله عنه وغيرهم من الصحابة" ونروي من طريقهم أحاديث إلى النبي عليه الصلاة والسلام كانوا هم حملتها العدول ونقلتها الأخيار ، وأيضا ما حُفظ عنهم من الفقه في دين الله تبارك وتعالى كل هؤلاء يُكتب لهم أجر من تبعهم لا ينقص ذلك من أجورهم شيء ؛ فهذا فيه فضل عظيم . ولهذا ينبغي على المسلم أن يجتهد في أن يكون له حظ من الدعوة إلى الهدى حتى يفوز بهذا الحظ العظيم من الأجر ، كل في مقدوره ومستطاعه ، من لم يكن عالما بالسنة يستطيع في زماننا هذا أن ينشر علم العلماء بها في الكتب النافعة والأشرطة المفيدة ونقل سنن النبي صلى الله عليه وسلم إلى الناس وترغيبهم في الخير وحثهم عليه من الأهل والولد والأقارب ومن يلقاتهم الإنسان بالكلمة الطيبة والرفق واللين ؛ حتى ينتشر الخير ((من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا)) .

((ومن دعا إلى ضلالة)) أي من كان داعية ضلالة والعياذ بالله يدعو إلى البدع أو الأهواء أو الخرافات وما لا أصل له في دين الله تبارك وتعالى ويدعو إلى اتباع هوى النفس من الآثام وما يُسخط الله تبارك وتعالى يدعو إلى الفجور .

((من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا)) كما قال الله في القرآن ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥] ؛ فالداعية إلى ضلالة يبوء بإثم نفسه ويبوء بإثم من دعاهم إلى ضلالته ، ودعاة الضلالة الذين ضلوا على يديه إذا دعوا آخرين يبوء أيضا بالإثم . ومما يوضح هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم في ما معناه ((لم تُقتل نفس ظلما إلا كان لابن آدم الأول كفل من دمها)) لأنه أول من سن القتل . فكل من سن سنة سيئة ودعا الناس إلى ضلالة فإنه يحمل والعياذ بالله إثم ضلالته وإثم ضلالة أتباعه إلى يوم القيامة .

ولهذا أيضا قال العلماء: أن الداعية إلى البدع إذا تاب لا يكفي أن يتوب في نفسه ، بل لابد أن يجتهد في إصلاح ما أفسد ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا﴾ [البقرة: ١٦٠] ، لابد أن يصلح إذا كان من دعاة الباطل والضلال لا يكفي أن يتوب في نفسه بل لابد أن يصلح ما أفسده في الناس ويبين لهم بطلان ما كان يدعوهم إليهم تحذيرا ونصحا .

فهذا الحديث فيه حث على الدعوة إلى السنة وتحذير من الدعوة إلى الضلال والباطل ، وفيه أيضا تنبيه إلى خطورة الكلمة ، الكلمة التي تخرج منك إما أن تكون لك أو عليك ، فالكلمة خطيرة لا يستهين بها الإنسان ، فهو موقوف بين يدي الله تبارك وتعالى وسأئله عن كلامه ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [١٨: ٣] ، فيحفظ كلامه ويزنه بميزان الحق والهدى ميزان كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام . بعض الناس الآن يستهين في أمر الإخبار عن دين الله عز وجل أو بيان الأحكام ؛ تجرد الناس والعوام والجهال بدين الله إذا ذكر أمر من أمور الدين كلّ يدلي بدلوه ويبيدي برأيه بدون فهم وبدون علم ، هذا يقول الحكم كذا وذاك يقول الحكم كذا ، قد جاء عنه عليه الصلاة والسلام ((أن من أرشد غيره إلى غير رشد فإنما إثمه على من أرشده)) . فالكلمة خطيرة جدا قال: ((من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه)) .

كيف أكون داعية إلى الهدى؟ هذا مطلب عظيم جدًا يثيره في نفوسنا وفي قلوبنا هذا الحديث العظيم المبارك ((من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً)) ينبغي أن تعلم هنا أيها الأخ الموفق أن من دعا إلى الهدى إذا مات ودُفن وأدخل في القبر تصل إليه الأعمال تلو الأعمال والأجور تلو الأجور إلى قيام الساعة مادام أن هناك مستفيدون من دعوته الصحيحة إلى الحق والهدى . أئمة الهدى الذين ماتوا من قرون طويلة ودعاة الخير الذين ماتوا من قرون طويلة هم في قبورهم والأجور تصل إليهم تلو الأجور ، يوما تلو يوم تصلهم الأجور في قبورهم ، كما يدل على ذلك هذا الحديث العظيم . ومن الناس من هو الآن حي يمشي على وجه الأرض وحظه من الأجور قليل جدًا ونصيبه من الآثام كثير جدا ؛ فكيف يكون الإنسان داعيا إلى الهدى؟

﴿٦٠﴾ أولاً: تُقبل على الله عز وجل إقبالا صادقا أن يهديك أنت في نفسك ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦٠] وأن يهدي لك وأن يهدي بك ، وأن يجعلك صالحا مصلحا ؛ تلجأ إلى الله عز وجل والتوفيق بيده ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] ، فتلجأ إلى الله تبارك وتعالى وتدعوه فالتوفيق بيده سبحانه وتعالى .

ﷺ ثم تحتهد في أن يكون لك حظ من العلم النافع والفقه في دين الله عز وجل وتعطي العلم الشرعي نصيباً من وقتك ، ولهذا سيأتى قريباً عند المصنف رحمه الله تعالى التحريض على طلب العلم ، فتجعل لطلب العلم نصيباً

من وقتك وجزءاً من حياتك تتفقه في دين الله تبارك وتعالى . وإذا وجد عندك التفقه ولو في شيء يسير من أمور الدين فهمته وفهمته دليله وتلقيته عن أهل العلم تلقياً صحيحاً تدعو إليه وتنصح الآخرين به وترغبهم فيه؛ فيكتب لك أجور هؤلاء وثواب هؤلاء .

﴿الأمير الثالث﴾: أن تكون محافظاً في نفسك على العمل والعبادة مجاهداً نفسك على البعد عن الآثام ومقارفة الذنوب ، لأن الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى كما أنها بلسان المقال فهي أيضاً بلسان الحال ؛ بالأسوة ، وكون الإنسان في خلاله وخصاله قدوة للناس في الخير ، وبالمجاهدة يتحقق للعبد كل خير وفضيلة ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] .

قال رحمه الله تعالى :

وله عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إنه أبدع بي فاحملي» ، فقال : ((ما عندي)) ، فقال رجل : «يا رسول الله أنا أدله على من يحمله» . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((من دل على خير فله مثل أجر فاعله)) .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه ((أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : إنه أبدع بي فاحملي))؛ أبدع بي: أي انقطعت دابتي وراحلي، إما بموت أو بهلاك أو مرض لا تستطيع نقله وحمله ، قال ((إني أبدع بي فاحملي)) أي أعطني دابة تحملني أسافر عليها . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ((ما عندي)) أي ليس عندي دابة أعطيك إياها .

((فقال رجل : يا رسول الله أنا أدله على من يحمله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ((من دل على خير فله مثل أجر فاعله)) وهذا فضل عظيم وكرم من الله عز وجل ومنة على عباده ؛ أن من دعا إلى خير ، و«خير» هنا نكرة لتعم كل خير قل أو صغر في نفع الناس في دينهم أو دنياهم ، ((من دل على خير كان له مثل أجر فاعله)) إذا دل الإنسان أخاه إلى حلقة علم ، إلى مكان عبادة ، دعاه إلى هدى إلى اتباع سنة ، دله على شيء في حاجاته مصالحه فله مثل أجر فاعله ، إن كانت صدقة فله مثل أجر المتصدق ، وإن كان علماً فله مثل أجر بيان العالم وهكذا .

ودائماً أقول للإخوان في كثير من المناسبات من يرتبون الدروس والمحاضرات لأهل العلم بحيث يتصل بالعالم ويقول له "منطقتنا بحاجة إلى درس أو بحاجة إلى محاضرة" ويحثه على ذلك ويؤكد عليه ثم يستجيب له مثلاً العلم أو الداعية إلى الله ويُعِدُّ للدرس ويراجعه له ويتجشم السفر وعناء الطريق ثم يلقي الخير والعلم ويستفيد الناس ؛ هذا

الذي دعاه إلى هذا الأمر له مثل أجره ، مع أن الذي كان منه مجرد اتصال أو مكالمة بالهاتف في دقيقة أو دقيقتين، فكل هذا الجهد الذي يكون من العالم يكون لذاك مثل أجره وفضل الله واسع ، والسهم الواحد يشترك فيه ثلاثة صانعه ونابله ومعطيه ، كما جاء معنى ذلك عنه عليه الصلاة والسلام ، فضل الله جل وعلا واسع ولهذا لا يحرم الإنسان حظه من الخير ، إذا لم تكن عالما وقريب من منطقكم عالم أو في منطقك عالم وتحته على التعليم وتساعدته على نشر العلم فإنه يُكتب لك مثل أجره ((من دل على خير فله مثل أجر فاعله)).

من اللطائف في هذا الباب: أن الشيخ الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله أَلَّفَ كتابًا سماه «تحفة الأخيار في الأذكار والدعوات التي يؤتى بها في طرقي الليل والنهار» في الصباح والمساء وأدبار الصلوات ، كتاب قيم جدا وهو كتاب ليس كبير لكنه مليء بالفوائد العظيمة ، ومن يقرأ الكتاب يجد فيه فوائد عظيمة في الذكر والدعاء وأشياء مستفادة من سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ؛ لما وصل إلى نهاية الكتاب ختمه بهذا الحديث حديث أبي مسعود البدر الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم ((من دل على خير فله مثل أجر فاعله)) ، وكأنه بهذه الخاتمة يعطي القارئ رسالة جميلة جدا يقول له: كما أنك قرأت هذا الكتاب وعرفت هذه الأذكار واستفدت منها وحصلتها انشرها أيضا بين الناس ، فإنك إن فعلت ذلك كان لك مثل أجورهم .

الآن أيها الأخ الكريم عندما تأخذ كتابا في الأذكار أو كتابا في التوحيد أو كتابا في فقه العبادات وتحمله معك هدية إلى أهل بلدك ، وقد كان السلف من الصحابة ومن اتبعهم بإحسان يتهدون مسائل العلم ، تحمله هدية لهم تقول هذا كتاب قيم وكتاب نافع في الأذكار ، بدل هذه الكتب التي انتشرت بين الناس ليست قائمة على سنة بل قائمة على الخرافة فتدلم على الهدى يُكتب لك مثل أجورهم . أحيانا بعض الكتب يحملها بعض الحجاج لا يستفيد منها رجل واحد! يتداولها أهل القرية لشحة الكتب وقلتها فيستفيد منها خلق . فهذا الحديث ((من دل على هدى كان له مثل أجر فاعله)) هذا يحرك القلوب المؤمنة إلى مزيد من العطاء ومزيد من البذل ومزيد من التعاون في نشر الخير وبيانه للناس ، فهذا أمر ليس بالهين .

قال رحمه الله تعالى :

وعن عمرو بن عوف رضي الله عنه مرفوعاً : ((من أحيا سنّة من سنّي قد أميتت بعدي فإن له من الأجر مثل أجر من عمل بها من الناس لا ينقص من أجور الناس شيئا ، ومن ابتدع بدعة لا يرضاها الله ورسوله فإن عليه مثل إثم من عمل بها من الناس لا ينقص من آثام الناس شيئا)) رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه وهذا لفظه .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث عن عمرو بن عوف رضي الله عنه مرفوعاً قال : ((من أحيا سنة من سنتي قد أميتت بعدي)) وهذا يبين لنا معنى قوله في الحديث الآخر ((من سنَّ في الإسلام سنة حسنة)) ، المراد بالسنة الحسنة: إحياء سنة أميتت ، غفل عنها الناس ونسيها الناس وفرطوا فيها وضيعوها فمن أحياها كُتب له أجر مثل أجر من عمل بها .

قول النبي صلى الله عليه وسلم ((من سن في الإسلام سنة حسنة)) المراد به إحياء السنن التي أميتت وغفل عنها الناس وضيعوها ، وليس المراد به إحياء البدع والضلالات التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان ، فنشر البدع هو من الدعوة إلى ضلالة ، ومن سن السنن السيئة في الناس ، فيبوء الإنسان بإثمها وإثم من اتبعه فيها . قال: ((من أحيا سنة من سنتي قد أميتت بعدي فإن له من الأجر مثل أجور من عمل بها من الناس لا ينقص من أجور الناس شيئاً)) فأجور الناس الذين استجابوا له ثابتة كاملة وله أيضا مثل أجرهم ، فيكون للعامل في عمله أجراً ، ويكون لمن دعاه إلى هذا العمل أجرا في العمل ، فيشترك في ثواب العمل: العامل والداعي إلى هذا العمل .

قال: ((ومن ابتدع بدعة لا يرضاها الله ورسوله)) وقوله «لا يرضاها الله ورسوله» هذا وصف لازم لكل بدعة ، ليس هناك بدعة يرضاها الله ورسوله بل هذا وصف لازم لكل بدعة ، كل بدعة لا يرضاها الله ورسوله ، كل إحداث في الدين ما ليس منه لا يرضاه الله ورسوله ، نظير قوله تعالى ﴿وَمَنْ يُدْعِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى﴾ [المؤمنون: ١١٧] قوله ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ هذا وصف لازم لكل شرك ، هل هناك شيء من الشرك له برهان ؟ حاشا وكلا ؛ فهذا وصف لازم لكل شرك . وقوله ((لا يرضاها الله ورسوله)) هذا وصف لازم لكل بدعة ، كما سبق أن مر معنا ((كل بدعة ضلالة)) أي وإن ظنها الناس طيبة حسنة نافعة ، كل بدعة ضلالة ، لأن دين الله سبحانه وتعالى تام كامل كما قال ربنا جل وعلا: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] .

قال: ((ومن ابتدع بدعة لا يرضاها الله ورسوله فإن عليه مثل إثم من عمل بها من الناس لا ينقص من آثام الناس شيئاً)) . وهذا الحديث في سنده شيء من الكلام لكنه بمعنى الأحاديث المتقدمة قبله .

قال رحمه الله تعالى :

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : «كيف أنتم إذا لبستم فتنه يربو فيها الصغير ويهرم فيها الكبير وتُتخذُ سنة يجري الناس عليها ، فإذا غُيِّرَ منها شيء قيل تُركت سنة» ، قيل : متى ذلك يا أبا عبد الرحمن ؟

قال : «إِذَا كَثُرَ قُرَاؤُكُمْ وَقَلَّ فَفَهَاؤُكُمْ ، وَكَثُرَتْ أَمْوَالُكُمْ وَقَلَّ أَمْنَاؤُكُمْ ، وَالتَّمَسْتُ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ ، وَتُفِّقَ لغير الدين» رواه الدارمي .

ثم أورد رحمه الله هذا الأثر العظيم عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : ((كيف أنتم إذا لبستكم فتنة)) لبستكم فتنة : أي غطتكم فتنة انتشرت في الناس وكثرت وتفشت فيهم وعمت ، كيف أنتم إذا لبستكم فتنة ؟ والمراد بالفتنة: أي فتنة الناس بدينهم بسبب غلبة الأهواء وسيطرة الشبهات حتى تعمى الحقائق الواضحة على الناس ، ولهذا توصف الفتنة بالعمياء الصماء لأنها إذا وجدت وعمت في الناس وانتشرت التبت عليهم السبل ولم يميزوا بين حق وباطل وهدى وضلال .

قال: ((كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير ويهرم فيها الكبير)) أشار رضي الله عنه إلى أمرين متعلقين بالفتنة :

❖ الأمر الأول: يستفاد من قوله ((لبستكم فتنة)) وهذا يفيد امتداد الفتنة المكاني بحيث إنها تنتشر في الناس في الأطراف المختلفة والأمكنة المتعددة .

❖ والجانب الثاني : مستفاد من قوله ((يربو فيها الصغير ويهرم فيها الكبير)) امتدادها الزماني ، بحيث أن الصغير يربو فيها ، يكبر وينشأ في الفتنة ، والكبير يهرم وهي لا تزال موجودة باقية ، الكبير الذي بلغ من السن أربعين خمسين يهرم ويدركه الهرم والفتنة لا تزال قائمة . فتكون ممتدة من حيث المكان وممتدة أيضا من حيث الزمان. ((وَتَتَّخِذُ سَنَةً يَجْرِي النَّاسُ عَلَيْهَا)) أي يمضي الناس عليها ويتمسكون بها ويظنون أنها هي السنة ، إلى درجة أنها إذا تركت قيل تركت سنة ، لماذا بلغوا هذا المبلغ؟ لأنهم من حيث المكان إذا نظروا وإذا بها هي الموجودة هي المنتشرة ، ومن حيث الزمان إذا نظروا يجدونها من قديم وهي موجودة ، فإذا تركت يقول الناس بسبب غلبة الفتنة عليهم "تركت السنة" ؛ وهذا مما يبين لنا أيها الإخوة خطورة فتنة الناس في دينهم ، قد يتصدّر إنسان للدعوة إلى ضلالة أو إلى بدعة ثم يستجيب له آخرون ويستجيب للآخرين آخرون فيموت الأول ثم يأتي على الناس زمان ولا يوجد في بعض المناطق إلا بدعة هذا الداعية الضال والعياذ بالله ، فالأمر جدُّ خطير .

يقول ابن مسعود رضي الله عنه : «كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير ويهرم فيها الكبير وتتخذ سنة يجري الناس عليها» أي يمضي الناس عليها ، «فإذا غيّر منها شيء قيل تركت سنة» .

((قيل : متى ذلك يا أبا عبد الرحمن ؟)) وقوله «متى ذلك؟» سؤال عن الحال التي يكون عليها الناس بحيث تستشري فيهم الفتنة بهذا الشكل وتتأصل فيهم بهذا الشكل الذي ذكر في هذا الأثر. متى ذلك يا أبا عبد الرحمن؟

قال : ((إِذَا كَثُرَ قُرْأُوكُمْ وَقِلَّ فَقَهَاؤُكُمْ)) أي إذا كثرت فيكم القراءة وقَلَّ فيكم الفقهاء في دين الله ، القراء: الذين يقرأون القرآن ويجيدون تلاوته ويجيدون مخارج الحروف ونحو ذلك ، يقيمون الحروف ويتلوونها تلاوة جميلة بأداء حسن وصوت طيب بدون فقه في دين الله وبدون بصيرة . ومن كان صاحب عناية بالقرآن من حيث إقامة حروفه إذا تصدّر لبيان الفقه وبيان الأحكام وهو لم يتفقه وإنما حفظ حروف القرآن ولم يحصل منه تفقه في دين الله يضل ويضل ، لأن القرآن لا بد فيه من فهم ، وفهم القرآن ومعرفة معاني القرآن ودلالته لا بد فيها من ضوابط ووسائل وأسباب ، لا أن يقول الإنسان في القرآن وفي كلام الله عز وجل ما لا يعلم ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] ، ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] .

قال: ((إِذَا كَثُرَ قِرَاءُكَ وَقِلَّ فَقَهَاؤُكَ)) أي عندما تتخذ القراءة مجرد صناعة ولا يكون هناك فقه في دين الله تبارك وتعالى ثم يتصدّر القراء لبيان الأحكام ودعوة الناس على غير فقه في دين الله وبصيرة ، والله يقول : ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨] .

قال : ((وَكثُرَتْ أَمْوَالُكُمْ)) أي أن غالب اهتمام الإنسان بالاهتمام بالمال والاهتمام بالدنيا ؛ طغى عليهم الاهتمام بالدنيا على الاهتمام بالدين والآخرة ، وفي الدعاء الثابت عن نبينا عليه الصلاة والسلام أنه قال: ((اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا)) ، ولما سأل الله تبارك وتعالى إصلاح الدين والدنيا والآخرة بدأ بإصلاح الدين لأنه هو المقدم ((اللهم وأصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخري التي فيها معادي)) ؛ فبدأ بإصلاح الدين لأن إصلاح الدين مقدم على إصلاح الدنيا .

قال : ((وَقِلَّ أَمْنَاؤُكُمْ)) أي قلت الأمانة ، والأمانة إذا ذهبت عن الإنسان ولم يكن أميناً فهذا فيه خطورة منه بالغة على الناس ، لأنه إذا لم يكن أميناً سيتجرأ على دين الله وعلى القول على الله جل وعلا وفي دينه وفي كتابه بغير علم لأنه ينقصه الأمانة ، بينما الأمين والذي يحافظ على أمانة الكلمة وأمانة القول وأمانة البيان وأمانة النصيحة وأمانة التعليم فإنه لا يتكلم بكل شيء ، بل يتورع ويتأكد ويتبين الأمر ويتبصر ويتفقه ثم يبين عن علم ، أما إذا نقصت الأمانة أو ذهبت الأمانة في الإنسان فإنه سيجرؤ في الكلام في دين الله والقول على الله سبحانه وتعالى بغير علم لأنه ليس عنده أمانة .

قال : ((وَالْتَمَسْتُ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ)) أي طلبت الدنيا بعمل الآخرة ، أي أصبح الناس يطلبون الدنيا بأعمال الآخرة ، بمعنى أنهم يعملون أعمالاً هي لأتعمل إلا للآخرة أي لنيل ثواب الآخرة من صلاة وبر وصدقة وغير ذلك من الأعمال وهم لا يطلبون بها الآخرة وإنما يطلبون بها الدنيا ، كطلب مثلاً الشهرة أو الرئاسة أو الزعامة أو الصيت أو كثرة الأتباع أو غير ذلك من المقاصد والأغراض ، فهو يأتي بأعمال الآخرة وهو في قرارة نفسه لا يريد بها الآخرة وإنما يريد بها الدنيا ، وفي الحديث ((إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته

إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)) .

والأمر الأخير قال : ((وَتُفْقَهُ لغير الدين)) يتفقه في الدين يتعلم الأحكام ويحفظ الأدلة ولكنه يجتهد هذا الجهد ويبدل هذا الأمر لا للدين نفسه وإنما يتفقه في الدين لأجل الدنيا ، يلتمس بالتفقه في الدين أمر الدنيا ليس مراده بالتفقه في دين الله تبارك وتعالى أن يرفع الجهل عن نفسه وأن يرفع الجهل عن الآخرين وأن يكون ناصحاً معلماً مبيناً ليس هذا غرضه وإنما غرضه الدنيا ، قد جاء عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى أنه قال : «العلم لا يعدله شيء إذا صلحت النية» قيل وما صلاحها؟ قال : «أن تنوي به رفع الجهل عن نفسك وعن غيرك» .

قال رحمه الله تعالى :

وعن زياد بن حُدَيْر رضي الله عنه قال : قال لي عمر رضي الله عنه : «هل تعرف ما يهدم الإسلام؟» قلت : لا ، قال : «يهدمه زلّة العالم ، وجدال المنافق بالكتاب ، وحكم الأئمة المضلّين» رواه الدارمي أيضاً .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الأثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال لزياد بن حُدَيْر رضي الله : ((هل تعرف ما يهدم الإسلام؟)) هل تعرف الشيء الذي إذا وُجد هدم الإسلام ونقض عراه ونشر الفساد والشر في الناس؟ هل تعرف ذلك ؟

((قلت : لا . قال : يهدمه زلّة العالم)) يقولون "زلة العالم زلة العالم" ، العالم إذا زل تبعه في زلله خلق لا يحصيهم إلا الله ، فزلة العالم هذه فيها خطورة جداً على الناس ، لأن الناس يأخذون عن علمائهم يأخذون عن فقهاءهم ، فإذا زل العالم سيتبعه في زلله خلق ، قال ((زلة العالم)) ؛ هذا يبين لنا خطورة الكلمة كما تقدم وأن العالم والداعية ينبغي أن ينتبه لكلامه وأن يزنه وأن يجتهد في ضبطه بضابط الكتاب والسنة ؛ حتى لا يزل في شيء يتبعه فيه خلق ويكون سبب فساد وشر في الناس . قال ((زلة العالم)) هذا الأمر الأول مما يسبب هدم الإسلام .

الأمر الثاني: ((وجدال المنافق بالكتاب)) وهذا أيضاً جانب آخر من أخطر ما يكون في نقض الإسلام ؛ أن يأتي المنافق الذي لا دين عنده ويجادل بالكتاب ، يحفظ المنافق آيات من القرآن ويضبطها ويعرف مواضعها ويبدأ يجادل الناس بالكتاب بغرض الإفساد، شأن أهل الزيف قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧] فالمنافق الذي يأتي ويحفظ آيات من المتشابه ويبدأ يجادل الناس بالكتاب ماذا سيكون من فسادٍ على إثر تصدي هذا المنافق؟ بل بلغنا أن بعض من يسمون بالمبشرين من المنصّرين الذين يكون لهم غرض في

البلاد الإسلامية أن يفسدوا عليهم أديانهم ، بعضهم يتعمد أن يحفظ القرآن أو يحفظ أشياء كثيرة من القرآن ومراده بذلك أنه إذا جلس مع المسلمين أن يشككهم في أديانهم ، يجلس مع العوام ومع الجهال ومن لا فقه لهم فيبدأ يعرض عليهم آيات من المتشابه ويلبس عليهم دينهم ويشككهم في دينهم ويشككهم في كلام ربهم تبارك وتعالى .

قال : ((وجدال المنافق بالكتاب)) المنافق صاحب هوى وصاحب باطل ، فيجادل بالكتاب أي يأتي بآيات ويلبس على الناس ويشبه عليهم فيها بحيث يقصد من ذلك أن يغرس فيهم بعض المفاهيم الباطلة أو يشككهم في بعض الحقائق الصحيحة الثابتة في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، يتبعون المتشابه ويتركون المحكم البين؛ فهذا فيه خطورة جداً بالغة على الناس ، قال ((جدال المنافق بالكتاب)) .

الأمر الثالث قال : ((وحكم الأئمة المضلين)) عندما يتولى أو تكون الولاية والسلطان بيد أئمة ضلال ودعاة بدعة فهذا أيضا فيه خطورة جداً على الناس ، لأن السلطان والوالي إذا كان يحمل بدعة وضلالا وباطلا سيحمل الناس عليه طوعاً أو كرهاً وسيؤذيهم ويتسلط عليهم وينشر باطله وبدعه فيهم إما بالقوة أو بالعرض الواسع باستغلال سلطته وولايته على الناس في نشر ما عنده من ضلال وباطل .

فهذه ثلاثة أمور ذكرها عمر رضي الله عنه تتسبب في انتقاض عرى الدين: زلة العالم ، وجدال المنافق بالكتاب ، وحكم الأئمة المضلين .

قال رحمه الله تعالى :

وعن حذيفة رضي الله عنه قال : «كلُّ عبادة لا يتعبدها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تعبدها فإن الأول لم يدع للآخر مقالاً ، فاتقوا الله يا معشر القراء وخذوا طريق من كان قبلكم» رواه أبو داود .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذه النصيحة العظيمة من حذيفة بن اليمان رضي الله عنه للقراء ، والقراء في موضع قدوة للناس ، القراء الذين حفظوا القرآن وأجادوا قراءته وأحسنوا قراءته موضع قدوة للناس ؛ فنصحهم رضي الله عنه هذه النصيحة العظيمة قال : ((كلُّ عبادة لا يتعبدها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تعبدها)) وهذا ضابط عظيم جداً في باب العبادة وفقه العبادة ؛ كل عبادة لا يتعبدها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تعبدها لماذا ؟ لأن ما لم يكن ديناً زمن محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه لا يكون ديناً إلى قيام الساعة . الدين هو الذي كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام هذا هو الدين ، وكل ما جاء بعده من محدثات الأمور ليست من الدين ، لو كانت من الدين لسبقنا إليه الصحابة رضي الله عنهم ، هم أحرص منا

على الدين ، وأكثر منا اجتهدًا عليه وحرصا عليه ، فلو كان خيرا لسبقونا إليه ، وهذا معنى قول حذيفة رضي الله عنه ((فإن الأول لم يدع للآخر مقالاً)) ، قال عليه الصلاة والسلام : ((خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)) ، الخيرية بأعمال الخير والبر والصلاح اجتمعت في الصحابة ، ((ولا يأتي على الناس زمان إلا والذي بعده شر منه ، وفي كل عام تزدلون)) ، أيمن أن تكون هناك جوانب من العبادة في قرون متأخرة لم تكن موجودة في زمن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وخيار الصحابة وأفاضل الصحابة؟ حاشا والله .

فهذه قاعدة في الباب ، وليت كل مسلم يحفظ هذه القاعدة ، هذا الكلام الذي قاله حذيفة صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم لو يحفظها المسلم ينفعه الله بها نفعًا عظيمًا «كل عبادة لا يتعبدها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تعبدوها» ، يطالب من يدعو إلى عبادة معينة أن يأتي بالدليل أنها موجودة في زمن الصحابة ، لو جاءك إنسان وأرشدك إلى عبادة أو نوع من الذكر قال لك : في الصباح تقول يا لطيف مثلاً ألف مرة وليكن معك سبحة فيها ألف خرزة ، وقال لك هذا شيء جيد ومشايخنا جربوا وأنا رأيت في المنام كذا وجاني هاتف في المنام وقال لي كذا ، وأعطاك من هذه الأمور تقبل أو ترجع إلى هذه القاعدة «كل عبادة لا يتعبدها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تعبدوها» ؟ وإن وسّع عليك في مثل هذه الأمور لا تلتفت لها ، لو قال لك أنا رأيت في المنام ، بعضهم يدجل على الناس ويقول "جاءني النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وقال هذا شيء جيد وهذا شيء عظيم وانشره في الناس" ، أو يقول جاءني هاتف في المنام هتف بي أو يقول جربت وجرب أشياخي أو غير ذلك من الأمور ، هل هذه موازين توزن بها الشريعة وتُعرف بها الشريعة؟ نرجع دائما إلى هذه القاعدة العظيمة ، يقول حذيفة رضي الله عنه : «كل عبادة لا يتعبدها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تعبدوها» . قل لهذا الرجل الذي دعاك إلى هذا الذكر أو لغيره من الأعمال وبناءه على التجربة أو بناءه على المنامات أو بناءه على الهواتف أو على أي أمر آخر إذا انتهى قل له : هل الصحابة رضي الله عنهم فعلوا هذا الشيء الذي تدعوني إليه أو لا ؟ إذا قال لك نعم فعله الصحابة ماذا تقول له ؟ عطني الدليل ، هذه كتب السنة موجودة ومحفوظة ومنشورة أعطني الدليل منها أن الصحابة فعلوا ذلك؟ أنا مثلت بالذكر بـ«يا لطيف» مرات لأنه منتشر في بعض المناطق بين كثير من العوام يأتون به ولا أصل له في دين الله ولا وجود له في ذكر الصحابة ، هذه أشياء أحدثت في الناس فيما بعد ، نرجع للقاعدة «كل عبادة لا يتعبدها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تعبدوها» ، بعض العوام يأتي ومعه ورقة كتبها له بعض الأسياف بالأرقام؛ يا لطيف ألف مرة ، يا حي مئتين مرة يا كذا ، ويجلس الصباح الباكر يشغل بأمور ليست مشروعة ، والأمور المشروعة لو تسأله عنها التي تقال في الصباح ما يعرف منها شيء . وهذا مما يبين لنا قول النبي عليه الصلاة والسلام ((إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلين)) الذين يدعون الناس إلى محدثات ولا يدلونهم على السنن الصحيحة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولهذا أقول مرة ثانية وثالثة لیتنا جميعا نحفظ هذا ونحافظ عليه وننشره في الناس ، كلمة حذيفة عظيمة جدا «كل عبادة لا يتعبدها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تعبدها» من لم يسعه ما وسع الصحابة لا وسع الله عليه ﴿أَوْ لَمْ يَكُنْهُمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١] الكتاب فيه كفاية ، السنة فيها كفاية ، الأمر الذي مضى عليه الصحابة رضي الله عنهم فيه كفاية .

قال رضي الله عنه ((فاتقوا الله يا معشر القراء)) وتقوى الله عز وجل إذا وجدت حقا في العبد صلحت حاله وزانت أموره .

((وخذوا طريق من كان قبلكم)) أي طريق الصحابة ، ولهذا يقول العلماء : من كان على الأثر كان على الطريق، من كان على الأثر أي من كان في عباداته وأعماله وادكاره وطاعاته على الأثر أي على أثر الصحابة فهو على الطريق أي على الطريق الصحيح الذي يوصل إلى الجنة ، لأن الطرق إلى الجنة مسدودة إلا من الطريق الذي كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام . قال في الحديث الذي مر قريبا: ((وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة)) قالوا من هم؟ قال ((من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي)) فهذه وصية عظيمة من حذيفة ونصيحة بليغة جدا ينبغي على كل مسلم أن يحافظ عليها وأن يحفظها وأن تُنشر في الناس ، كلمة عظيمة وجميلة ينبغي أن تنشر في الناس «كل عبادة لا يتعبدها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تعبدها» .

قال رحمه الله تعالى :

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : «من كان مستنّاً فليستنّ بمن قد مات فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا أفضل هذه الأمة : أبرّها قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلّها تكلفاً ، اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم ولإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم على أثرهم ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم» رواه رزين .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الأثر العظيم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : ((من كان مستنّاً فليستنّ بمن قد مات)) يعني من كان متأسياً ومقتدياً ويريد أحداً يقتدي به ويستن بطريقته ويلزم هديه ، ((من كان مستنّاً فليستنّ بمن قد مات فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة)) بأن تلبسه فتنة فيضل في الدين أو في جوانب منه .

((أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم)) يشير بقوله «أولئك» أي من قد مات ، من كان مستنًا فليستن بمن قد مات أعني أصحاب محمد . قوله «أولئك أصحاب محمد» أي أعني أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم استنوا بما كانوا عليه واقتدوا بما كانوا عليه . ثم ذكر جملة طيبة من صفاتهم .

قال: ((كانوا أفضل هذه الأمة)) والنبي عليه الصلاة والسلام شهد لهم بذلك، ورب العالمين شهد لهم بذلك في كتابه العزيز قال جل وعلا: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ [التوبة: ١٠٠] فذكر لهم جل وعلا هذا الثناء العظيم؛ السبق بالخير والفضيلة وأثنى على من اتبعهم بإحسان قوله ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ يفيد أن الخيرية في الناس بعد الصحابة بحسب اتباع الصحابة رضي الله عنهم بإحسان ، وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١١٥] ، فرغب جل وعلا ورهب في هذا الباب .

قال: ((كانوا أفضل هذه الأمة)) ومر معنا أيضا قريبا قوله عليه الصلاة والسلام ((خير الناس قرني)) . ((أبرها قلوبا)) قلوبهم صافية نقية ؛ فيها البر ، فيها الصدق ، فيها الإخلاص ، فيها المحبة الصادقة لرسول الله عليه الصلاة والسلام .

((وأعمقها علما)) كان عندهم علم عميق وفهم واسع وعظيم لدين الله وسنة النبي صلى الله عليه وسلم . ((وأقلها تكلفا)) الصحابة لم يكونوا من أهل التكلف ، ولهذا قال من قال من أهل العلم : «كلام السلف قليل كثير البركة ، وكلام الخلف كثير قليل البركة» ، وإذا أردت شاهد ذلك اقرأ كلمة حذيفة التي مرت معك قريبا قال «كل عبادة لا يتعبدها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تعبدوها» ، كلمة واحدة تغنيك عن مجلدات لو وفقك الله عز وجل لفقه هذه الكلمة كلمة واحدة تغنيك عن مجلدات في هذا الباب العظيم ، لأنها جمعت وأصلت وقعدت تقعيدا عظيما وتأصيلا مباركا في هذا الباب .

قال: ((اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم وإقامة دينه)) وانظر هذه الصفة العظيمة ، اختارهم الله عز وجل أي اصطفاهم جل وعلا لصحبة نبيه ؛ أي ليفوزوا بشرف الصحبة للنبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، ولهذا خصوا دون سواهم ممن جاء بعدهم بهذا اللقب الشريف المبارك «الصحابة» . والمسلمون عندما يسمعون هذا اللقب لإنسان ما يعرفون قيمة الرجل ، لما يقال لهم "الصحابي أبو بكر" ، "الصحابي عمر" ، "الصحابي عثمان" ، "الصحابي أبو هريرة" هذا اللقب العظيم الشريف الذي فاز به الصحابة وأكرم به الصحابة وخص به الصحابة له وقع عظيم في نفوس الأمة . دعك من أهل الضلال وأهل الأهواء الذين أشربوا الفتن وولغت ألسنتهم الفاسدة في الصحابة طعنا وسبًا وشتما ونيلًا منهم دعك من هؤلاء ، الكلام على أهل الإسلام وأهل السنة وأهل الفهم الصحيح .

«الصحابة» هذه الكلمة لها وزنها ولها قيمتها لها مكانتها في نفوسهم ، أثنى الله عليهم في القرآن وأثنى عليهم النبي عليه الصلاة والسلام في السنة ، بل أثنى الله سبحانه وتعالى عليهم في التوراة وفي الإنجيل قبل أن يوجدوا على وجه الأرض وقبل أن تمشي أقدامهم على وجه الأرض أثنى الله عليهم في التوراة وفي الإنجيل ، وقرأ ذلك في آخر آية من سورة الفتح ، قال تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ أي الصحابة ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ﴾ ، الله عز وجل أثنى عليهم هذا الثناء العاطر في التوراة ، قال : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ هذا ثناء آخر عليهم في الإنجيل . فرب العالمين أثنى على الصحابة في التوراة وأثنى على الصحابة في الإنجيل قبل أن تمشي أقدامهم على الأرض وقبل أن يوجدوا ، وأثنى عليهم بعد وجودهم وفي أثناء وجودهم في القرآن الكريم في آيات كثيرة في القرآن الكريم فيها الثناء على الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم .

قال : ((اختارهم الله لصحبة نبيه ولإقامة دينه)) وانظر إلى مآثرهم المحيطة والخير العظيم الذي كتبه الله على أيدي الصحابة في نشر الدين في أصقاع الدنيا ، ضحوا بالنفس والنفيس في سبيل نشر دين الله تبارك وتعالى .
قال : ((فاعرفوا لهم فضلهم)) وهذه وصية ونصيحة من عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، اعرفوا لهم فضلهم ، ومن أسف أن بعض الناس لا يعرفون فضل الصحابة ولا يعرفون فضل الصحابة ولا مكانة الصحابة .
قال ((فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم على أثرهم)) أي كونوا على أثر الصحابة وطريقة الصحابة .
((وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم)) جاهدوا أنفسكم على التمسك بأخلاق الصحابة وسيرهم ، قال بعض أهل العلم كلمة جميلة في هذا الباب : «من كان بهم أشبه كان ذاك فيه أكمل» كلما كنت أشبه بالصحابة كان ذاك فيك أكمل في الدين ، كلما وفقك الله وأكرمك بالتشبه بالصحابة وأن تكون متشبه بالصحابة سائرا على نهج الصحابة فذلك أكمل في دينك ، وكلما فرطت في التشبه بالصحابة الكرام رضي الله عنهم كان ذلك أنقص في دينك .

قال : ((وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم)) فإنهم كانوا أي الصحابة على الهدى المستقيم .

قال رحمه الله تعالى :

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْمًا يَتَدَارَعُونَ بِالْقُرْآنِ فَقَالَ : ((إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِهَذَا ؛ ضَرَبُوا كِتَابَ اللَّهِ بَعْضُهُ بَبَعْضٍ ، وَإِنَّمَا نُزِّلَ كِتَابُ اللَّهِ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، فَلَا تَكْذِبُوا بَعْضُهُ بَبَعْضٍ ، فَمَا عَلِمْتُمْ مِنْهُ فَقُولُوا ، وَمَا جَهِلْتُمْ فَكَلِمَةُ إِلَى عَالِمِهِ)) رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَةٍ .

ثم ختم رحمه الله تعالى بهذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ((أنه سمع قوماً يتدارعون بالقرآن)) أي يتجادلون ويتمارون بالقرآن فقال : ((إنما هلك من كان قبلكم بهذا)) .

قال : ((ضربوا كتاب الله بعضه ببعض)) أخذوا يعارضون بين النصوص ويصادمون بين الأدلة ويثيرون الشبهات .
 ((وإنما نُزِّلَ كِتَابُ اللَّهِ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا)) ولهذا وصف الله عز وجل القرآن بأنه متشابهاً قال ﴿كَتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] أي يصدق بعضه بعضاً ويؤيد بعضه بعضاً ولا يعارض بعضه بعضاً ، أيضاً قال الله تبارك وتعالى ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] .

قال : ((وإنما نُزِّلَ كِتَابُ اللَّهِ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا فَلَا تَكْذِبُوا بَعْضُهُ بَبَعْضٍ)) لا تكذبوا بعضه أي بعض القرآن ببعضٍ ؛ وهذا يحدث تكذيب بعض القرآن ببعض عندما يصادم الإنسان النصوص ويعارض بينها؛ فيصل من خلال ذلك إلى التكذيب ببعض الآيات ، مثل ما حصل من بعض الناس الذين كذبوا ببعض صفات الله الثابتة في كتاب الله جل وعلا والثابتة في سنة نبيه صلى الله عليه وسلم زعموا منهم وإدعاء كاذباً أن هناك آيات تعارض ثبوت هذه الصفات لله ، والآيات التي ادَّعوا أنها تعارض ثبوت الصفات لله أساءوا في فهمها كقوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ونحوها من الآيات . فهنا يُحْذَرُ من ذلك يقول : ((فلا تكذبوا بعضه ببعض)) أي لا تكذب بعض آيات القرآن ببعضٍ آخر من القرآن لأن القرآن يصدق بعضه بعضاً ، وإذا وجد عندك تعارض فالتعارض لا يرجع إلى القرآن نفسه وإنما يرجع إلى فهمك أنت ، القرآن ليس فيه تعارض ، القرآن متشابه يؤيد بعضه بعضاً ، يصدق بعضه بعضاً ليس فيه تعارض وليس فيه اضطراب ، فإذا وجد تعارض فهذا راجع إلى فهمك ؛ فما هو الحل إذا وجد تعارض؛ هل والعياذ بالله يكذب الإنسان بعض القرآن ببعض ؟

قال مبيناً الحل والمخرج في مثل هذا : قال ((فما علمتم منه فقولوا ، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه))؛ لا يقحم الإنسان نفسه فيما ليس له به علم ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] ، ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] .

وبهذا الحديث ختم المصنف رحمه الله تعالى هذه الترجمة العظيمة «بابٌ تحريضه صلى الله عليه وسلم على لزوم السنة والترغيب في ذلك وترك البدع والتفرق والاختلاف والتحذير من ذلك» ، وجمع فيها جملة من النصوص الطيبة في هذا الباب من كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه .

والله تعالى أعلم ، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .